75-960931

المورد

مجلة تراثية فصلية • تصدرها وزارة الاعلام - الجمهورية العراقية - المجلد الرابع - العدد الرابع - ١٣٩٥ — ١٩٧٥

النثر الفني عربي النشأة

للدكتور

أحمد الحوفي

(١) مقدمة

عرف العرب الكتابة والتدوين منذ العصر الجاهلي ، فلما أشرق الاسلام كان للنبي عليه الصلاة والسلام كتاب يدونون القرآن الكريم ، ويكتبون رسائل النبي الى الملوك والامراء ، مثل علي بن ابي طالب وزيد بن ثابت ، ويصح ان نعد هذا العمل أول خطوة في انشاء ديوان رسمي للدولة الاسلامية . فلما تولى ابو بكر الخلافة اتخذ عثمان ابن عفان كاتبا له ، ولما تولى عمر اختار زيد بن ثابت وعبدالله بن الارقم كاتبين له .

ثم ولى عثمان فكان كاتبه مروان بن الحكم ، ولما تولى علي عين كاتبه عبدالله بن رافع .

على أن عمر أنشأ ديوان الجند الذي يضبط ما يرد الى بيت المال وما يصدر عنه ، وبقى هذا الديوان من بعده .

ثم أنشأ معاوية ديوان الخاتم ليتولى ارسال ما يكتبه الخليفة او يمليه مختوما حتى لا يعرف حامله ما فيه .

ولقد عربت الدواوين التي كانت بفارس والشام فى عهد عبدالملك بن مروان ، وعربت دواوين مصر فى عهد ابنه الوليد ، فامتلأت بالعرب وبمن أجادوا العربية من ابناء هذه الاقاليم ، وصار لكل ديوان اعماله التي يمارسها رجاله .

فلما ازدادت الحاجة فى العصر الاموي الى كتابة الرسائل الصادرة من الخليفة نشأ ديوان الرسائل ، وكان سليمان بن سعد هو الذى يتولى كتابتها ايام عبدالملك بن مروان .

لكن هذا الديوان لم يشتهر بالافتنان فيما يكتبه الا فى عهد هشام بن عبدالملك ، ويرجع الفضل فى هذا الى ابى العلاء سالم بن عبدالله صاحب الديوان .

وقد تتلمذ لسالم وحاكاه كثير من الكتاب ، وكان عبدالحميد بن يحيى أبرعهم ، ثم صار فيما بعد أعظمهم أثرا ، وأبعدهم صيتا ، اذ تولى الكتابة لمروان بن محمد وهو وال على الجزيرة ، ثم تولاها له وهو خليفة بدمشق الى ان أفلت شمس بني أمية ، وأشرقت شمس بني العباس .

يتضح من هذا التمهيد ان العرب عرفوا الدواوين ونظامها قبل ان ينقلوها عن الفرس ، لكننا لا ننكر انها كثرت وتعددت بعد اتصالهم بالفرس ، مجاراة لنتطور الذى اقتضته السياسة والادارة ، وتأثرا بالفرس وغيرهم فى الشام ومصر وافريقية .

(٢) دعوى

ادعى بعض المستشرقين ان العرب لم يعرفوا النثر الفني معرفة ذاتية ، وانهم نقلوه عن الفرس واليونان ، فيرى المسيو مرسيه أن أول كاتب فى اللغة العربية عبدالله بن المقفع الفارسي الاصل ، ويذهب الى أن العرب لم يكونوا يعرفون من النثر غير الخطب واسجاع الكهان والامثال ، ويعلل ذلك بانهم كانوا يحيون حياة اولية بدائية ، وهي لا تقتضي نثرا فنيا ، لان النثر لغة العقل والثقافة ، وانما يلائم هذه الحياة الشعر ، لانه لغة العاطفة والخيال(١) .

ولعل هذا الرأي هو الذي سوّل للدكتور طه حسين أن يذهب الى ان الشعر سبق النثر الفني(٢) .

---

(١) النثر الفني في القرن الرابع ١/٣٣ ، ٣٨ ، ٤٣ زكي مبارك .

(٢) حافظ وشوقي ٦٣ ومن حديث الشعر والنثر ٢٢ .

واغلب الظن انه هو الذى جعله يرى ان اول القرن الثاني لنهجرة هو الذى شهد ظهور الحياة العقلية ، وهو الذي شهد مظهر هذه الحياة وهو نشأة النثر الفني ، لان اول من احدث فى نفوسنا لذة الكتابة الفنية فى العصر الاسلامي فى القرن الثاني للهجرة هو عبدالحميد وابن المقفع(٣) . لكنه - مع هذا - أكد اصالة النثر الفني عند العرب ، وانهم لم يستعيروه من غيرهم .

والحق ان النثر الفني نشأ نشأة عربية خالصة ، فلم ينقله العرب عن اليونان او الروم أو الفرس او الهند ، كما نقلوا كثيرا من العلوم والمذاهب والاراء . لكن هذه الحقيقة تحتاج الى تدليل عليها ، واثبات لصحتها ، ومناقشة لما زعمه المستشرق مرسيه من جهل العرب للنثر الفني الى أن ظهر ابن المقفع .

(٣) تفنيد الدعوى

نستطيع أن نفند هذه الدعوى بعدة ادلة :

١- القرآن الكريم هو المعجزة العظمى فى البيان العربي ، شده العرب بافتنانه ، فتطامنوا لبلاغته ، سواء من شرح الله صدره للاسلام ، ومن أصر على الكفر والعناد .

أما الذين أسلموا فقد آمنوا بأن القرآن منزل على النبي من عند الله تعالى ، واما الذين كفروا فقد أيقنوا بأن القرآن طراز من البلاغة لا طاقة لهم بمثله ، لكنه من صنع النبي ، وزعموا انه أوتى مقدرة خارقة ، فاتهموه بأن ساحر وبأنه شاعر .

واذ كان القرآن الكريم ذروة البيان العربي ، ونزل بلسان عربي مبين كما وصفه الله تعالى ، فانه من الطبيعي أن يكون العرب قبيل الاسلام قد مارسوا النثر الفني ممارسة اعدتهم لان يخاطبهم الله تعالى بالقرآن الكريم ، فانه سبحانه يقول : « وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم »(٤) . ثم انه تعالى تحداهم فى عبارات محرجة قارعة أن يأتوا بسورة من مثله ، فعجزوا ، ولو لم يكن القرآن من جنس بيانهم الذي عرفوه والفوه ماتحداهم هذا التحدي ، وما سجل عليهم عجزهم بعد طول الامهال « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » (٥) .

لكننا بحاجة الى نصوص نطمئن اليها للدلالة على معرفة العرب للنثر الفني قبل الاسلام ، لان الشك يخامر ما روى عنهم من خطب ووصايا ورسائل ، وان كان فقدان هذه النصوص التي نطمئن اليها لايصح ان ينهض دليلا على جهالة العرب بالنثر الفني ، وبخاصة انهم قوم ذوو لسن وبلاغة ، يحبون البيان والتحبير والرشاقة ، ويأمرون بالتبين والتحرر من زلل الكلام ومن زلل الرأي(٦)، ولقد وصفهم القرآن الكريم بذلك ، فقال تعالى : « ولتعرفنهم فى لحن القول »(٧) وقال : « ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ، ويشهد الله على ما فى قلبه وهو الد الخصام »(٨) ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم لما سمع بعضهم يتكلم مادحا ثم قادحا معللا لمدحه وقدحه : ان من البيان لسحرا (٩) .

لهذا كانت مفخرة النبي من جنس ما تميزوا به ، من بلاغة المنطق ، وروعة التعبير ، وساحر البيان .

٢ - كان للعرب فى جاهليتهم أمثال كثيرة ، سلم بعضها من النسيان والاغفال ، وبقي الى أن دون ، ومن اقدم المصادر لهذه الامثال كتاب الفاخر لابى طالب المفضل بن سلمة المتوفى سنة ٢٩١ هـ . وبه أمثال كثيرة جاهلية ، لانرتاب فى نسبتها الى العصر الجاهلي ، كما نرتاب فى الخطب والرسائل ، لان فى طبيعة الامثال ما يكفل بقاءها زمنا طويلا ، فعباراتها قصار يسهل حفظها وبقاؤها وتداولها ، والناس كلفون بترديدها والاستشهاد بها ، لانها تمثل تجارب الماضين وآرائهم واحكامهم ، ولانها مرتبطة باحداث سابقة كثيرا ما يشهدون لها نظائر ، فسرعان ما يستحضرون التعبير السابق ويرددونه فى الحدث الحاضر ، ثم انها تصور الوانا من اخلاص البشر وطباعهم كانت صادقة فى تصويرها حينما قيلت ، وما تزال فى تصويرها حينما يتمثل بها مرددوها .

ولكن ما علاقة الامثال بالنثر الفني ؟

فى كثير من هذه الامثال صفات ترتفع بها عن اللغة المألوفة فى الحياة المعتادة الى لغة فيها براعة وافتنان ، فهي مرسلة فى تعبير مختار المفردات ، محكم الصياغة ، وفى بعضها عناية بالجرس والتوازن والايقاع ، لهذا نجد فيها سجعا وتماثلا فى عدد

---

(٣) من حديث الشعر والنثر ٣٥ .
(٤) سورة ابراهيم ٤ .
(٥) سورة الاسراء ٨٨ .
(٦) البيان والتبيين للجاحظ ١٩١/١ ، ١٩٧ .
(٧) سورة محمد ٣٠ .
(٨) سورة البقرة ٢٠٤ .
(٩) البيان والتبيين ٥٣/١ .

الكلمات أحيانا مثل : رب عجلة تهب ريثا ، ورب فروقة يدعى ليثا ، ورب غيث لم يكن غيثا .

وهي تعتمد احيانا على مجاز او كناية او تشبيه او استعارة مستمدة من البيئة ، لتوحي بالمعنى المراد في ثوب من الخيال ، كقولهم تجوع الحرة ولا تأكل بثديبها ، وقولهم : كل فتاة بأبيها معجبة ، وقولهم في وصف المغرور بما يتوهم في نفسه من مزايا ومواهب ، او ربما يمتلك من اشياء يظن انه وحده المالك لها بغير أن يقيس ما عنده بما عند الناس : كل مجر في الخلا يسد ، لان الذي يجري فرسه وحيدا ينخدع بسرعته ، لكنه اذا سابق به غيره ربما تبين له بطؤه وضعفه .

وكقولهم فيمن يتنصل من خلق فيه او من وصف ثابت له ، فيدعي انه طارىء عليه ، كأن يكون جبانا ويزعم انه تقهقر لمرض نزل به ، او يكون حقير النشأة فيدعي ان الدهر اخنى على مجد آبائه: قبل النفاس كنت مصفرة ، لان المرأة التي كانت قبل الحمل مهزولة شاحبة تزعم بعد الوضع ان نحولها وشحوبها من آثار النفاس .

ولقد يعتمد المثل على التشخيص ، فيضفي صفات الاحياء على الجماد ، او يضفي صفات العقلاء على غير العقلاء من ادراك وتعقل ورزانة وتهور ، مثل قولهم : أحمق من رجلة ، لانها تنبت في مجرى السيل فيقتلعها ، كأنها صاحبة رأي وارادة واختيار ، وهي التي اختارت لنفسها هذا المكان لتنبت فيه ، وكذلك قولهم : أكفر من حمار ، وأكيس من قشة (قردة صغيرة) وأكتم من الارض .

٣ – احتفى العرب بالخطابة منذ العصر الجاهلي ، وافتخروا ومدحوا بالبراعة فيها ، حتى كانت الخطابة والشعر متساويين في القدر .

قال لبيد :

ومقام ضيق فرّجته ببيان ولسان وجدل(١٠)

وقال قيس بن عاصم المنقري في وصف قومه :

خطباء حين يقوم قائلهم
بيض الوجوه مصاقع لسن(١١)

ورثى أوس بن حجر فضالة بن كلدة بأنه الخطيب الفذ في مجمع القوم عند الملوك :

أم من يكون خطيب القوم ان حفلوا
عند الملوك اذا كيد واقوال(١٢)

لكنهم لم يكونوا يعدون خطبهم مكتوبة ، لان الكتابة كانت نادرة ، بل كانوا يفكرون في مقالهم ويحبرونه ويزينونه ثم يسترسلون ، يقول الجاحظ (١٣):

« كان الكلام البائت عندهم كالمقتضب – المرتجل – اقتدارا عليه ، وثقة بحسن عادة الله عندهم ، وكانوا مع ذلك اذا احتاجوا الى الرأي في معاظم التدبير ومهمات الامور قيّثوره – ذللوه – في صدارهم ، وقيدوه على انفسهم ، فاذا قوّمه الثقاف أبرزوه محككا منقحا ومصفى من الادناس مهذبا » .

اي انهم كانوا احيانا يعمدون الى التحبير والتزيين او التنميق كما كان يفعل كثير من الشعراء.

ثم ازدادت الخطابة رفعة وقوة في العصر الاسلامي ، وكان كثير من الخطب يعد اعدادا فيه تأنق وتجويد وترتيب ، سواء أكان اعدادا مكتوبا أم غير مكتوب .

يدل على هذا ان عمر بن الخطاب قال انه كان في يوم السقيفة قد أعد كلاما ليقوله ، لكن أبا بكر استمهله وتكلم ، فلم يدع شيئا مما كان عمر يريد أن يقول ، وكان عمر يشعر بأن لخطبة النكاح صعداء ومشقة ،(١٤) ، وروى ان عثمان بن عفان صعد المنبر فارتج عليه ، فقال ان أبا بكر وعمر كانا يعدان لهذا المقام مقالا ، وأنتم الى امام عادل أحوج منكم الى امام خطيب ، وستأتيكم الخطب على وجهها ان شاء الله(١٥).

وهذا صريح في أن أبا بكر وعمر كانا يعدان خطبهما او على الاقل بعض خطبهما ، وفي أن عثمان فوجيء بالخطابة غير مستعد لها ، فوعدهم بانه سيعد خطبه لتجيء على النسق الذي يرضاه ويرضونه .

وروى ان الخوارج طلبوا من عبدالله بن وهب الراسبي – حين ولوه عليهم – ان يخطب فيهم ، فقال : وما أنا والرأي الفطير والكلام القصيب(١٦). واشتهر واصل بن عطاء بأنه كان يجتنب الراء في

(١٠) البيان والتبيين ٢٦٥/١ .
(١١) البيان والتبيين ٥٧/١ .
(١٢) البيان والتبيين ١٨٠/١ .
(١٣) البيان والتبيين ١٤/٢ .
(١٤) البيان والتبيين ١١٧/١ .
(١٥) المرجع السابق ٢٤٥/١ .
(١٦) البيان والتبيين ٢٢٥/١ .

خطبه(١٧)ليخفي لثغته ، ومعنى هذا انه كان يعدها ويتمهل فى اعدادها ·

على أن طابع الاعداد والتانق يتضح فى كثير من خطب العصر الاموي ، كخطبة زياد بالبصرة ، وخطبتى الحجاج بالكوفة والبصرة ، وخطبة عبدالملك بعد مقتل مصعب ، وخطبة ابى حمزة الشاري بالمدينة ، لان هذه الخطب ونظائرها موحدة الموضوع ، بارعة التعبير ، متزنة الجمل ، محلاة بسجعات لطيفة الوقع ، معتمدة على ألوان من الخيال ·

ولقد يسترعي الانتباه ان بعض الخطب تبدأ بمقدمة وثيقة الصلة بالموضوع ، ثم يعقبها العرض ، وبه أحيانا تدليل وتفنيد ، ثم تنتهي بخاتمة جامعة للموضوع ، او مثيرة للسامعين ، وهي بهذه المراحل قد استكملت اجزاء الخطبة كلها ، كما قسمها ارسطو وغيره من المحدثين ·

أليس هذا كله توكيدا لان الخطب كانت كثيرا ما تعد قبل الالقاء ؟

٤ – فاذا ما انتقلنا الى الكتابة وجدنا فى زمن النبي صلى الله عليه وسلم لم تكن فى حاجة الى تنميق ، لان الغاية منها مقصورة على ابلاغ المعنى من أقرب طريق ·

فلما كان عهد عمر كثرت رسائله ، وبدا فى بعضها التحبير والاحتفال ، كرسالته الى ابي موسى الاشعري فى القضاء ، ثم اتضح التنميق اكثر فى الرسائل المتبادلة بين عني ومعاوية ·

وآل الامر الى معاوية فانشأ ديوان الرسائل وديوان الخاتم ، ثم عربت دواوين الخراج فى عهد عبدالملك فصارت العربية لغة الدواوين كلها ، وكان يليها عرب خلص او مستعربون حذقوا العربية مثل سالم مولى هشام بن عبدالملك وعبدالحميد بن يحيى ·

وكان لهؤلاء الكتاب من عرب ومستعربين فضل عظيم فى النهوض بالكتابة الفنية ، لانهم منقطعون لها ، ولان بقاءهم فى الدواوين موصول بمهاراتهم وتجويدهم ·

ولقد كان كثير ممن يملون الرسائل او يكتبونها يتخيرون التعبير وينمقونه قبل ابن المقفع ، فجاءت رسائلهم بليغة الصياغة طريفة الخيال ، كما نجد فى الرسائل المتبادلة بين علي ومعاوية ، وبين معاوية وزياد ، وبين الحجاج وقطرى بن الفجاءة ·

ويدل على هذا ايضا ان معاوية املى على كاتبه كتابا قال فيه عن رجل : « لهو أهون عليّ من ذرة ، او كلب من كلاب الحرة » ثم لم يلبث ان قال للكاتب : امح من كلاب الحرة ، واكتب من الكلاب(١٨) ، ولعله كره هذه السجعة ، لان كلاب الحرة ليست أكثر هوانا من غيرها ، فحرصه على ذكرها يدل على انه يتكلف السجع ، ويخضع له المعنى ، وهذا ليس من البلاغة التي اشتهر العرب بها ·

٥ – بعد هذا كله أترقى فى التدليل والتوضيح فأعقد موازنة بين صفات النثر الفني عند عبدالحميد بن يحيى وصفاته فى الرسائل التي كتبت قبل أن يحط عبدالحميد سطرا ، فماذا اجد ؟

أجد اتفاقا حينا وتشابها حينا في الجوهر . ولا أجد اختلافا الا فى الشكل والمظهر ·

فما معنى هذا ؟

كان عبدالحميد يطيل آنا ويوجز آنا ، مراعيا ما يقتضيه المقام وما تتطلبه المناسبة ، لكنه لم يكن مبتدع هذا التنويع ، فقد كانت الرسائل قبله تطول احيانا ، وتقصر أحيانا ، مجاراة للموضوع ، أو مراعاة للمقام ، وأجد فى رسائل عبدالحميد حفاوة ببسط الافكار وتوليد المعاني او توكيدها بالترادف ، وقد سبقه الى هذا كثير ممن املوا رسائل فى العصر الاموي او كتبوا بأنفسهم ·

ولقد يسترعي انتباهنا فى نثر عبدالحميد انه يجنح احيانا الى الخيال يفوق به الافكار . ولكن هذا ليس بجديد ، لان فى بعض الرسائل التي كتبت قبله الوانا من الخيال لا تقل طرافة وجمالا عن أخيلة عبدالحميد ، ان لم تفقها بهاء واصالة ·

واذا كان عبدالحميد قد اعتمد على التانق والتحبير ، وتعمد التجويد . لانه كاتب مختص بالكتابة ، فان كثيرا من رسائل العصر قبله أعدها كاتبوها او أملوها وتانقوا فيها ونمقوها ·

ولست أنسى أن عبدالحميد كان يفصل الجمل ويقطعها متساوية الطول ومتساوية القصر ، ولست أنسى أن كان يزينها بقنيل من السجع الذى لا استكراه فيه ، وانه كان يرتب افكاره فى كثير مما يكتب ، لكنني أذكر ان هذه الصفات كلها محققة فى كثير من رسائل العصر الاموي وصدر الاسلام قبل عبدالحميد ·

---

(١٧) المرجع السابق ١/١٤ .

(١٨) رسائل الجاحظ ١٥٥ .

بقيت بعض مظاهر شكلية تفرد بها عبدالحميد، من تأنقه فى البدء والختام وتنويعهما حسب المقام ، ومثل اطالته في البدء بنوع خاص بعبارات التمجيد والثناء مكررا المعاني تارة . ومولدابعضها من بعض تارة ، لكن تفرده بهذا لا ينهض دليلا على انه اول من كتب فى العربية نثرا فنيا ، ولا يصح أن يموه به أحد لينفي عن العرب معرفتهم النثر الفني قبل عبدالحميد وابن المقفع ، لان الحكم ينبغي أن ينصب على الاصل والبنية والجوهر ، لا على الشكل والحاشية والمظهر ، ولان لنثر الفني ماكان ليفقد ميزة ذات قيمة لو انه خلا من الاطناب والتأنق في مطالع الرسائل وخواتمها . وانما كان يفقد خواصه الاصيلة لو انه جاء خلوا من التجويد والتنميق وتوخى الجمال والتأثير .

(٤) النتيجة

اذن كان النثر الفني معروفا للعرب قبل عبدالحميد وابن المقفع ، لان العرب كتبوا رسائل فنية قبل أن يكتب عبدالحميد وابن المقفع ، وهذا النثر الفني اخذ يتطور ويترقى على السنة العرب الذين أملوا ، وعلى أقلام العرب الذين كتبوا ، فلما قاربت الدولة الاموية نهايتها كان هذا النثر قد شارف نضجه ، ثم كان عبدالحميد اول كاتب فى الديوان اشتهر بكتابته ، وذاع صيته ، وظهرت فى آثار قلمه خواص من سبقوه ، ومظاهر نثر فني يحدث فى نفوسنا لذة ، ونجد فى قراءته متعة .

ومعنى هذا ان النثر الفني في ادبنا العربي لم يكن يوناني النشأة ، ولا فارسي المولد ، وانما نشأ عربيا خالص العروبة ، كما نشأ الشعر وكما نشأت الخطابة والحوار والامثال .

اما الطابع اليوناني والفارسي فقد تبين فى تطور النثر الفني حينما اتصل العرب بالفرس واليونان ، ونهلوا من ادب اولئك وعلوم هؤلاء ، فكانت معالمه فى نثر ابن المقفع ومن بعده اوضح منها فى نثر عبدالحميد ومن سبقوه .